

## الفصل الثاني

### عصر النهضة الأوروبية

عصر النهضة وصف يطلق على تلك الحقبة التي نشطت فيها حركة احياء العلوم والمعارف والآداب والفنون في إيطاليا ثم انتقل منها ببطء إلى ألمانيا وفرنسا وبريطانيا والأراضي المنخفضة وأسبانيا ثم إلى بقية دول أوروبا . ويرجع بداية ظهور عصر النهضة في إيطاليا إلى عدة أسباب من أهمها:

١- موقع إيطاليا الجغرافي في البحر المتوسط مكنها من أن تؤدي دور الوسيط في الناحية الاقتصادية بين الشرق الاسلامي من ناحية وباقي دول أوروبا من ناحية أخرى مما ساعد الإيطاليين على أن يكونوا على اتصال وثيق مع مدن هامة في الشرق مثل بافلا وعكا والقسطنطينية.

٢- ما خلفته الإمبراطورية الرومانية من الكنوز الفنية من الآداب والعلوم هذا إلى جانب تراث روما السياسي القديم عندما كانت موطنًا للإمبراطورية الرومانية القديمة.

٣- تواجد مقر البابوية في إيطاليا والمتمثل في البابا وكراسيته وسيطرته الدينية والدنيوية، جعل الإيطاليين يشعرون بسيطرة بلادهم الدينية على باقي جهات أوروبا.

٤- تأثر الإيطاليين بالثقافة العربية الإسلامية، واقتباس الكثير منها لاسيما في مجال العلوم الرياضية والفنون.

٥- الهدوء النسبي الذي تمتعت به إيطاليا وبخاصة في القرن الخامس عشر الميلادي فبينما كانت الدول الأوروبية تخوض حروباً واسعة فيما بينها كانت إيطاليا تنعم في رخاء وسلام مما مكن أبناءها من "التفرغ للبحث والاطلاع والانفعاغ بمجلة التطور إلى النمو والازدهار .

٦- بروز العديد من الفنانين العظماء الذين تشربوا هذه الروح الجديدة واستطاعوا أن يجسموها في إنتاجهم، ويعبروا عنها في أعمالهم، وقد حاول كل من هؤلاء الفنانين الإسهام في تمثيل جانب من النهضة وبذلك صار رائداً من روادها.

٧- احتدام التنافس بين المدن الإيطالية، جعلها تتسابق في المجالات الأدبية والفنية، مما شجع القرائح على الإبداع في شتى المجالات وأنجب كوكبة من العلماء والفلاسفة والأدباء والمفكرين.

٨- توفر بعض المطابع في المدن الإيطالية ساعد على انتشار الفكر والثقافة.

٩- جود العديد من المخطوطات الإغريقية واللاتينية في المكتبات الإيطالية، وتملك بعض المتقنين الإيطاليين إزماء هاتين اللغتين مكنهم من فك طلاسم كثير من المخطوطات والتعرف على محتوياتها.

١٠- اتساع النشاط الفكرى بين الإيطاليين، وقلة الحواجز الطبقية بينهم جعل لإيطاليا قصب السبق فى تبنى النهضة الأوروبية.

وعلى كل حال فقد اتخذت النهضة الأوروبية فى بداية أمرها أشكالا متنوعة اختلفت مظاهرها من بلد إلى آخر ففى إيطاليا اتخذت مظهرا فنيا وثقافيا وعلميا وأدبيا، كما تمثلت فى الانغماس فى اللهو والملاذات والترف.

وفى ألمانيا كان مظهرها الإصلاح الدينى. وفى فرنسا وجه الأدباء جل اهتمامهم إلى الإبداع القصصى والتحليل النفسى، وتحقيق المؤلفات القديمة، والتعليق عليها وفى بريطانيا برز الاهتمام بالمسرح والأدبيات، وكان من أبرز أدبياتها "وليم شكسبير".

أما فى أسبانيا والبرتغال فقد تغنى الأدباء بالفروسية، وبالصفات التى يتحلى بها الفارس. ومع كل ذلك فإنه يمكن القول بأن لعصر النهضة سمات عامة ومظاهر تعبر عن روح العصر بأكمله.

وعن بواير النهضة فى إيطاليا فقد بدا المفكرون والمتقنون يهتمون ببعث وإحياء الدراسات الإغريقية واللاتينية واتخاذها مصدرا للإلهام والوحى، فدرسوا مؤلفات "أرسطو" و"سقراط" و"فرجيل" ووضعوا القواميس التى تساعد على تفهمها كما بدأوا فى التققيب عن المخطوطات والآثار والاستفادة منها، وقد عرف هؤلاء باسم الإنسانيين Humanists لأنهم صوروا الحياة الإنسانية بصراحة وصدق، وكان حبهم للثقافة واضحا وكان من أبرز هؤلاء، الإيطالى "بترارك" الذى أعجب بالطبيعة وتذوق مناظرها الجميلة التى تؤثر فى الإنسان والذى كرس حياته لدراسة اللغة اللاتينية باعتبارها لغة الأدب الرفيع التى عرفت أيام قيصر وشيشرون، وكتب بها بعض قصائده كقصيدة إفريquia التى تحدث فيها عن الحروب بين روما

وقرطاجنة، واستمر فترة من الزمن لا يقرأ مؤلفات "دانتي" المكتوبة بالاطالية حتى لا يتأثر بها ويقلده في الكتابة بتلك اللغة.

وقد مثلت كتابات "بترارك" الذي يعرف بأب الحركة الإنسانية روح عصر النهضة فشاعت عنه أفكار جديدة منها ضرورة أن يهتم الناس بحياتهم الدنيوية، ومنها نقده للكنيسة، ومطالبته بإقامة وحدة سياسية بين الولايات الايطالية، حتى تصبح أمة قائمة بذاتها وبعيدة عن نطاق الإمبراطورية. ومنها دعوته للأمرء ورجال السياسة في إيطاليا بالكف عن منازعاتهم. ومنها أيضا كراهيته للحكم الاستبدادي المطلق.

ومع أن البعض مثل "كولادى رينزى" قد حاول وضع آراء "بترارك" السياسية موضع التنفيذ أثناء حركته التي حاول بها توحيد إيطاليا وجعل روما العاصمة للجمهورية الإيطالية الحديثة، إلا أن هذه الحركة لم يتحقق لها النجاح ولم تتحقق أفكار "بترارك" على بساط الواقع في حياته.

وعن النهضة الفنية فقد تجلت في أبرز مظاهرها ومعانيها في إيطاليا حيث كان الميل كله منصبا على التعبير عن المثل الأعلى في النحت، وعلى إحياء الفن الكلاسيكى فـمـ، جوهره. فبرع الإيطاليون في دراسة الفنون الجميلة والتصوير واهتموا بالأثار القديمة وأخذوا في محاكاتها والارتقاء بمستواها مع مسابقة روح العصر الذي يعيشون فيه فـدب في الفنون الكثير من روح التغيير وتحلل الكثير من الفنانين من قيود التقاليد واتجهوا إلى الإسراف في الاهتمام بأسور الدنيا بصراحة بالغة والارتقاء بمستوى الفنون فأخرجوا إنتاجا فنيا مائنا بأحاسيس الناس، كما صوروا الطبيعة وعبروا عنها تعبيرا فنيا رائعا، وقد ساعد على تطور هذه النهضة الفنية العديد من الحكام والأمراء الذين تباروا في رعاية الفنون وتنافسوا على امتلاك العديد من النفائس الفنية مما مهد الطريق أمام الكثير من الفنانين الذين أماطوا اللثام عن جمال آثار الماضي، ونهضوا بالفنون أمثال "ليوناردو دافنشى" و "ميخائيل أنجلو" و رافائيل". وفيما يلي نعرض لهؤلاء ودور كل منهم في النهضة الفنية.

#### ١- ليوناردو دافنشى Leonardo da Vinci [١٤٥٢-١٥١٩]

ولد دافنشى في بلدة فيشى الجبلية في ١٥ من أبريل ١٤٥٢م وامتاز بتعدد ملكاته واتساع ثقافته، فقد برع في الطبيعة والميكانيكا وفي تصميم آلات الحرب والنحت والرسم

والتصوير والمعمار وعلم وظائف الأعضاء والرياضة والأدب وعلوم الطبيعة وعلم التشريح والجغرافيا. هذا إلى جانب كونه موسيقيا وشاعرا، مما دفع البعض إلى وصفه بأنه كان موسوعة علمية ضمت شتى العلوم التطبيقية وبأنه النابغة الفذ الذى لم يمثله فى نبوغه أحد من معاصريه.

وقد احتمل "دافنشى" المشاق فى سبيل البحث عن الحقيقة العلمية دون كلل أو ملل. كما امتاز فنه بالعمق والبناء الهندسى والرقّة. هذا إلى جانب القدرة على التعبير عن مكنون النفس البشرية، ومع أن لوحات "ليوناردو" الأولى ليست معروفة كلها، فإن من أعظم اعماله صورتيه الشهيرتين عزاء جروثو *Virgino the Grotto* أحدهما فى متحف اللوفر فى باريس، والأخرى فى المتحف الوطنى فى لندن، وصورة العشاء الأخير *Last Super* فى كنيسة سانتا ماريا فى ميلانو، والتي دلّ فيها على ابداعه، وتعمقه فى إدراك النفس البشرية وانفعالاتها وردود أفعالها وذلك فى المنظر الرائع الذى جمع المسيح وحوارييه الاثنى عشر - على مائدة وضع عليها الخبز وأقداح الشراب. وهو يعلن لهم أن أحدهم سوف يخونه فما كان من تلاميذه إلا أن اتجه بعضهم إليه وبعضهم إلى بعض متسائلين متألمين خائفين. وقد ظهر وجه المسيح بصفاته الروحاني وهنونه فى حين كانت صورة الانزعاج تبدو على وجوه اتباعه.

ولدافنشى أيضا رائعته الشهيرة "موناليزا" أو "الجيوكوندا" فى متحف اللوفر فى باريس وهى صورة لسيدة شابة جميلة كانت زوجة لضابط يكبرها سنا اسمه "فرانشيسكو جيوكوندا" وكان هذا الضابط قد أصيب فى رجولته أثناء الحرب مما جعله غير قادر على ممارسة الحياة الزوجية معها مما حرمها متاع الزوجية فى ربيع حياتها ويبدو أن هذه المرأة قد راق جمالها لحاكم فلورنسا.

وقد قام دافنشى بوضع كل طاقاته وإمكاناته ومواهبه الفنية خلال رسمه لهذه الصورة التى استغرقت منه أربع سنوات ١٥٠٢ - ١٥٠٦ فخرجت معبرة عما تحمله موناليزا من مشاعر فنية وعواطف عميقة حزينة ووداعة ممزوجة بجانبية نادرة.

وتعد الموناليزا أشهر الانجازات الفنية لدافنشى، حيث أنها تعد من أجمل صوره بلا منازع، فهى بألوانها الطبيعية الخلابة تمثل الجمال الايطالى فى أسمى مظهر له.



والفرقة بين المصورين التي لها بين عامي 1507 و 1519 ووجدت هناك بعض التماثيل في باريس



#### • ليوناردو - إحدى اللوحات الخالدة لليوناردو

ليوناردو - زوجة فرنسيسكو ديكوندو حبيبته صافى جسده مدته فلورنسا سموري  
عاشها الفنان - ليوناردو - فخر من قبل إسبانيا صوره في مدى أربع سنوات كانت  
تواجه في خلالها يوسا سره وحادث الصورة من ادع ماوصل اليه حياته في  
الرجال حتى العفان عذارة العبر عساكنه وفيه الرقة الساة التي طاب لها  
في زوجها من فرنسيسكو المصور وكاتبه نفسه ليوناردو فانه المصور وحسن  
الهامه فكان يستاجر بمسرحه الفريديريك والتاجرين ليسج بهم على حد  
ذلك الأساطير القديمة ربما شتات تصويرها

ولا مان ليوناردو من فريديريك المصور الأول في سنة 1469 ومع ذلك  
1490... فركنا لها إلى دولة القسطنطينية لصورة ليوناردو التي قلت  
وقد طرقت على تلك في جونايلو بر اسفلت إلى مكتب اليوم حيث هي  
في 77

وهذه اللوحة لا تزال موضع أعجاب الكثيرين حتى الآن ينبهرون بروعتها، ويصبر بعضهم على أن فيها سحرا غامضا يتمثل في تلك الابتسامة الغامضة التي تحمل سرا كامنا في نفس صاحبيتها ويسعى حاليا الهواة من الأثرياء لاقتنائها، كما سعى للصمص لسرقتها ولكنها ما زالت محفوظة في متحف اللوفر في فرنسا حيث شاهدها ويشاهدها الملايين من الناس.

وإلى جانب ذلك فقد ترك "دافنشى" بعض مؤلفاته التي تدل على موسوعيته وسعة علمه وتعدد مواهبه ومن هذه المؤلفات كتاباه البديعان "قواعد علم التصوير" وفيه تحدث عن التصوير وفنونه، و "مذكراته" التي تناول فيها بحثا في التشريح والجيولوجيا والنبات والميكانيكا وغيرها.

وقد توفي "دافنشى" في عام ١٥١٩م، بعد أن دفع النهضة الفنية في بلاده خطوات رائدة، ووضع بصماته في صنع عصر كامل وكان له الفضل في تأسيس منهج جديد في التصوير جعله نابضا بالحياة، ووصل بتسجيله للواقع إلى أبداع ما يمكن الوصول إليه وهو المثل الأعلى في الجمال فكان عبقرية جامعة ينذر أن توجد مثلها موهبة تمتلك كل تلك الملكات والمهارات التي أمتع البشرية بها.

## ٢- مايكل انجلو Michel Angelo [ ١٤٧٥ - ١٥٦٤ ]

ولد في السادس من مارس ١٤٧٥ في كابريزه وتلقى أولى دروسه في التصوير عام ١٤٨٨ كما عرج إلى دراسة النحت الإغريقي ووجد فيه شأيته.

ويعد انجلو عبقرية ملهمة، وشخصية من أبرز شخصيات الفن ومن أبرز رواد النحت في عصر النهضة حيث طغت أعماله الفنية على جميع أعمال معاصريه، خاصة وأنه مزج في فنه بين الآراء الأفلاطونية المحدثة وتعاليم سافونا رولا وروح دانتى، وإلى جانب ذلك كان متعدد الثقافة وأوسع الأفق، وأما طابعه فيتخلص في أنه استطاع أن يرتفع بفنه حتى أصبح مضرب الأمثال في الجمع بين سمو الخيال، وجمال الاقتباس هذا إلى جانب روعة الإنشاء. فقد نظم الشعر وبرع في التصوير وهندسة البناء، واشتهر بوفرة إنتاجه الفني، الذي أعطاه طابعا من الألم والقوة والرقّة والجمال والسمو في آن واحد. كان الغاية عنده أن يظهر الجسم البشري إظهارا جميلا ساميا، ملئنا بالقوة نابضا بالحياة.

ومن أشهر أعماله نحتة للمجموعة الرخامية الشهيرة التي تمثل العذراء والطفل وإتمامه مبنى كنيسة القديس بطرس في روما. وقيامه بعمل تمثال موسى عليه السلام في روما الذي يعد من أعظم أعماله وقد أظهر فيه بوضوح قوة العضلات وقبضة اليد وجمال اللحية وملامح الوجه التي بدأ عليها الغضب والألم والانفعال لما حاق بشعب إسرائيل من العذاب لدرجة أن وصفه البعض بأنه أروع آيات الفن في العالم ومما يقال عن انجلو بعد نحتة لهذا التمثال أنه صاح به أن ينطق ثم سقط مغشياً عليه.

وإلى جانب ذلك قام "انجلو" بنحت تمثال داود من الرخام وقد نصب هذه التمثال أمام قصر أمارة فلورنسا. كما قام بنحت ورسم سقف كنيسة بالفايتيكان، هذا بالإضافة إلى رسمه للعديد من اللوحات الحائطية التي يقدر عددها ما بين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ لوحة. وقد عبر انجلو في تماثيله عن روح العصر الذي عاش فيه، واستمد فنه من الظروف المهيبة أمامه ومن المعاني التي أحسها بنفسه، وكرس له كل وقته لدرجة أن كان يعمل معظم وقته وهو مستلقيا على ظهره فوق منصة عالية حتى أخرج للبشرية فنه الرائع الذي أحبه لدرجة العشق وإذا قارنا فنه بتراث الأغريق نجد أن الفارق بينهما يتلخص في عنف انجلو في الإخراج، وتخييره للمواقف الصعبة، ومواقف الاضطراب والضغط راجعا في ذلك اظهار قوة الإنسان وجمال بنيانه. وقد توفي انجلو في عام ١٥٦٤ بعد حياة فنية مليئة بالجمال بمعناه الفلسفي / فنه فسي احدى كنائس فلورنسا.

### ٣- رافائيل سانتى Raffaello Santi [ ١٤٨٣ - ١٥٢٠ ]

يميز عصر النهضة بظهور عدد عظيم ممن توافرت فيهم الكفايات والعقريات الملهمة في عالم الفن من هؤلاء "رافائيل" الذي يعد ثالث العمالقة الكبار في فن النحت والتصميم والرسم فقد درس أعمال دافنشى ومايكل انجلو وتلقى الكثير عنهم في أثناء وجوده في فلورنسا، كما استفاد منهم في أعماله الفنية، فقد استفاد من دافنشى طريقة توزيع الضوء والظل في لوحاته، كما تأثر بعبقرية مايكل انجلو في توضيحه لمعالم الجسم الانساني ثم فاقهما في الابتكار والابداع واختلف عنهم في بعض الأحيان وقد رسم رافائيل لوحات عديدة للعذراء مريم. كما دعاه البابا يوليوس الثاني سنة ١٥٠٨ للتوجه إلى روما حيث قام بتزيين قاعات الفاتيكان وزخرفة بعض غرفه وإلى جانب ذلك له روائع فنية أخرى تدل على عبقرية مثل



والانجيل



عذراء الكرسي والمسيح الطفل - دالمانيل



"مدرسة اثينا" و " السر المقدس" الذى لخص فيه تاريخ الكنيسة وقد شغل رافائيل فى السنوات الخمس الأخيرة من عمره منصب الرئيس الأعلى لبناء كنيسة القديس بطرس، وتعمق فى دراسة الآثار ومعرفة أسرار الفن القديم.

وقد توفي رافائيل فى عام ١٥٢٠ عن سن لا يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره بعد أن ترك إنتاجا ضخما فى ميدان التصوير والعمارة. وعلى كل حال فإن دافنشى وانجلو ورافائيل يشتركون معا فى إبراز معالم النهضة الفنية فى إيطاليا لدرجة جعلتها فى طليعة ما قدمه الفنانون للبشرية من إبداع فقد أخرجوا لها إنتاجا فنيا افتخرت به العديد من الأجيال وعنده نبراسا لها فى محاكاته. ومجمل القول أن رافائيل كان فنانا لانظير له عاش قليلا ولكنه أنتج كثيرا. يضاف إلى ذلك أن عصر النهضة حفل بالعديد من المفكرين الذين طرحوا أفكارهم وآراءهم فى شتى ميادين الحياة وفى الفكر السياسى وأصول الحكم وكان من أبرز هؤلاء "نيقولا ميكافيللى"، و"دانتي" وفيما يلى نعرض لأبرز أعمال كل منهما.

### أولا: نيقولا ميكافيللى Niccolo Machiavelli [١٤٦٩ - ١٥٢٧]

ولد ميكافيللى فى مايو ١٤٦٩ بمدينة فلورنسا المدينة الإيطالية الشهيرة (رسم كلاسى دولة قائمة بذاتها) من عائلة نبيلة<sup>(١)</sup> وعاش زمن سافونا رولا وآل مديتشى Medici. وقد درس ميكافيللى العلوم السائدة فى عصره فتعلم اللاتينية ودرس الآثار الرومانية واليونانية، وكذلك التاريخ ثم برز اهتمامه فى الدراسات السياسية والتاريخية فقرأ السجلات لأرسطو، وقرأ خطب شيشرون وكتبه السياسية كما قرأ الانبياء لفرجيل، وكان حريصا من صباه على تنقيف نفسه ثقافة تاريخية وسياسية.

وقد خدم ميكافيللى فى حكومة فلورنسا لمدة ١٨ سنة وخلالها كلف بعدة مهام دبلوماسية، والتقى بالكثير من الأمراء والسفراء والحكام، ومن هذه اللقاءات عرف الكثير عن الحكم وطبائع الحكام ولقد اشتهر ميكافيللى فى عالم السياسة بمؤلفه الشهر " الأمير The Prince" الذى كتبه عام ١٥١٢ موضحا فيه الاستبداد من الناحيتين النظرية والعملية

<sup>(١)</sup> كان والده يعمل فى القضاء، ويمتلك بعض العقارات.

وأهداه إلى حاكم فلورنسا لورنزودى مديتشى **Lorenzo de Medici** والذي يمكن اعتباره وثيقة تاريخية لدراسة الأخلاق السياسية فى إيطاليا فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر.

كما برزت أرلوه السياسية أيضا فى كتابه المسمى "المقالات أو الخطط" وبالنسبة لكتاب الأمير فقد استمد من ظروف إيطاليا المضطربة والمنازعات والخصومات التى تلاحقها وهو عبارة عن آراء ونصائح للحاكم لكى يخرج إيطاليا من الفوضى إلى حياة الاستقرار وقد صور فيه اميرا وطنيا يستطيع انقاذ إيطاليا من الانقسام الذى تعانى به ويمكن من توحيدها والقضاء على الغزو الخارجى الذى يهددها. وأن يتبع من أجل تحقيق هذه الأهداف أى وسيلة ولو كانت دما يراق أو عهدا تمزق أو أعراسا تستباح، فدعا إلى مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" عن طريق تركيز السلطة فى يد حاكم قوى فى فترة مؤقتة تنتهى إلى الحياة الديمقراطية وقد أبرز ميكافيللى فى كتابه عدة نظريات سياسية منها أن خير حكم يرجوه لبلاده هو الحكم الاستبدادى المستتير الذى لا يهتم بالفضيلة أو الرذيلة ولا يعبأ بالأخلاق أو المثل إذا كانت ستف عتبة فى طريق النجاح وأنه يجب الفصل بين الأخلاق والسياسة، لأن السياسة لا مكان فيها للأخلاق، ولا مانع للحاكم. من استعمال البطش والقسوة والخداع من أجل تحقيق الأهداف السياسية العليا للبلاد، ومن أجل اقرار الامن، ومنع الفوضى والاضطراب وضرب مثلا على ذلك بقوله إذا وجد قاطع طرق يعيث فى الأرض فسادا أو يعتصم فى منطقة نائية فلا غبار مطلقا على الحاكم الحريص على مصلحة شعبه من أن يؤمن هذا اللص ويتعهد له بالمحافظة على حياته ثم يغدر به فالنتيجة تبرر الوسيلة، وحذر ميكافيللى الأمير من المداحين والمنافقين الذين يزينون له الأمور على غير حقيقتها وطالبه بالاعتماد على نصيح مستشاريه المخلصين ثم يحكم بما يسمع بنفسه.

كما أوضح ميكافيللى أن الإنسان ولد شريرا لا يفعل الخير إلا مجبرا وحاول أن يؤكد ذلك بدراسته لتاريخ الإنسان عامة عبر عصوره المختلفة، وأنه لا يمكن الاعتماد على الطبيعة الانسانية فى إصلاح نفسها لذلك يجب على الحاكم أن يتخذ نفس هذا السلاح فلا يحافظ على العهود والمواثيق، وقواعد الأخلاق والدين، بل يجب عليه ، أن يتخذ كل أسلحة الغدر والشر، والمبادئ المنافية للأدب الإنسانية لإقرار الأمن فى المجتمع، وطالما أنه غير مجبر على تنفيذ وعوده فلا داعى لأن يقوم بتنفيذها، وعلى الرغم من ذلك فإن ميكافيللى ينصح الحاكم بأن

يحاول دائما أن يكسب ثقة شعبه وصداقته لأنه الملجأ والملاذ في أوقات الشدائد، بمعنى أنه يستخدم الشدة حتى يهابه الناس ويخشون بطشه، بشرط ألا يترك الجراح تسيل دما بل يصلح ما يمكن إصلاحه بمعنى أنه يجب على الأمير أن يكون أسدا وأن يكون ثعلبا أيضا.

والكتاب أيضا يشتمل على دراسات لتجارب الماضى والحاضر فيتطرق إلى الحكم اليونانى والإمارات الإيطالية منذ العصور الوسطى وحتى عصر النهضة وبه إرشادات يقدمها للأمير كي يستفيد منها فى أثناء حكمه، فتتضح بأن يعمل لخير شعبه حتى يضمن كراميته، وفى نفس الوقت يكون طاغية وغادرا حتى يستطيع الاستمرار فى حكمه، ويرهبه الناس ويخشون بأسه، ولما كان المال ضروريا لاستمرار الحاكم فى منصبه، فقد رأى "ميكا فيللى" ضرورة توفر المال لدى الحاكم حتى يستطيع تدبير مصالح شعبه، فى حين كان يرى أن يظل الشعب محدود الثروة حتى يتحفز للعمل والإنتاج ورفع مستوى معيشته، لأنه لو توفّر لديه المال يركن إلى الكس والخمول.

وعلى الرغم من دفاع "ميكا فيللى" عن استبداد الحاكم لشعبه فقد كان يرى أن الحكم الجمهورى الديمقراطى والحرية السياسية هما المثل الأعلى للحكم عنده.

ونادى "ميكا فيللى" بتوحيد إيطاليا وطرد البرابرة الذين اعتكوا عليها فى الشمال، وطالب بضرورة تكوين جيش قوى يستطيع حماية الأمن الداخلى، وحذر من الاعتماد على جيوش دول أجنبية فى الدفاع عن الوطن، أو الاعتماد على جنود مرتزقة لأن هؤلاء لا يقاتلون بحماس فى سبيل قضية يدافعون عنها بل أن هدفهم هو جمع المال فحسب، وكثيرا ما ينقلبون على مستأجريهم ويعيثون فى بلادهم فسادا، فإذا فشلوا فى مهمتهم تركوا الأمير يهلك، وإذا انتصروا انقلب رئيسهم على الأمير، وقد ضرب العديد من الأمثلة على ذلك ومنها أن الجمهورية المسلحة التى يدافع عنها أبناؤها يكون خضوعها للجانبى أصعب من خضوع الجمهورية المحمية بجيش ماجور من المرتزقة.

وطالب "ميكا فيللى" الأمير بالا يكون جاهلا بفنون الحرب حتى يظل محترما من جنده وأن يكون محاربا قادرا على احتمال الشدائد محققا للمآكل والمتعة وسائر أنواع الترف حتى يقال محبة جنده ومواطنيه.<sup>(١)</sup>

(١) نيقولا ميكا فيللى: كتاب الأمير - تعريب محمد لطفي جمعة، القاهرة، مطبعة المعارف ١٢

وينصح "ميكافيللي" الأمير بأن يختار رجاله ومعاونيه من أصحاب المواهب العقلية الذين يصدقونه النصح حتى تصبح حكومته مثالية ويلتف حولها الشعب.

يضاف إلى ذلك أنه نسب إلى البابوية كل المصائب التي لحقت بإيطاليا. ومما يؤخذ على كتاب "ميكافيللي" أنه ركز مقومات الدولة في دعمتين هما الجيش والسياسة وأغفل مقومات مهمة أخرى مثل الدين والاقتصاد والثقافة.

يضاف إلى ذلك أنه سخر من الاديان بقوله "أن وضع دين جديد أمر سهل وميسور" كما أنه كان متشائما حين تغافل عن المقومات الانسانية وأخضع كافة الأمور، للسياسة، وحين طالب الشعب بأن يكون أداة مسخرة في يد الحاكم.

ومما سبق يتضح أن "ميكافيللي" كان مؤرخا بلا قلب وقد بلور أفكاره في كتابه "الأمير" كما يلي:-

- ١- أن يفصل الحاكم بين السياسة والأخلاق القومية، وإن مصالحه وحدها هي التي يجب أن تراعى.
- ٢- أن يتخذ الحاكم كل الإجراءات اللازمة للوصول إلى غايته ولا مانع من استعمال السبش والخداع والخبث والجريمة من أجل تحقيق أهداف بلاده السياسية.
- ٣- أن توحيد إيطاليا والدفاع عنها يلزمه بناء جيش قوى من الإيطاليين أنفسهم، والابتعاد عن استخدام المرتزقة من الجنود، واعتبار الشعب أداة أساسية في تحقيق أهدافه العليا.
- ٤- ضرورة فصل الكنيسة عن الحكومة حتى يمكن توحيد إيطاليا.

ونتيجة لذلك ظلت الميكافيلية لمدة تزيد على الأربعة قرون عالقة في ذهن العالم خاصة في شمال أوروبا على أنها مرادفة لشئ شيطاني وخبيث، كما ظل "ميكافيللي" رمزا شهيرا للسياسي المتآمر والماكر والمنافق المجرد من الأخلاق والعدم المبدأ والمستهتر والذي تنحصر كل فلسفته في أن الغاية تبرر الوسيلة، وأصبح كتاب الأمير ضروريا للطغاة كي يعلمهم كيف يحصلون على السلطة ويحتفظون بها، ففي إيطاليا وفرنسا وروسيا وأسبانيا اتخذت فلسفة "ميكافيللي" دستورا للعمل. والواقع أن "ميكافيللي" تجاهل أمورا كثيرة، مثل الدين الذي اعتبره جزءا من جهاز الدولة، أخضع الاخلاق للمصلحة السياسية، وقد نقلت افكار "ميكافيللي" إلى لغات عديدة منها العربية فقد عرفت مصر كتاب الأمير - أول ما عرفته في

عصر محمد على حيث قام بترجمته - ترجمة ركيكة صعبة الفهم - مترجم سورى هو الأب انطون رفائيل زاخورة<sup>(١)</sup> بناء على أوامر محمد على.

والجنير بالذكر أن محمد على بعد أن قرأ الكتاب<sup>(٢)</sup> فى عام ١٨٢٨ قال عنه " اعترف بأننى قد وجدته أقل بكثير مما كنت أتوقع، ومن الشهرة التى له".

وفى بدايات القرن العشرين عرفت مصر الترجمة الثانية لهذا الكتاب قام بها الأستاذ محمد لطفى جمعة، وقد طبعت فى عام ١٩١٢، وأسلوبها أكثر دقة ووضوحا وأقرب إلى الفهم من أسلوب الترجمة الأولى.

ومما سبق يتضح أن "ميكافيللى" ذلك السياسى الذى لعنه السياسة قد تتلمذ عليه الكثيرون منهم أما عن كتاب " الخطط" فقد وضع فيه "ميكافيللى" رؤيته التى تصورها لإنشاء دولة قومية موحدة فى إيطاليا على غرار ما حدث فى بعض الدول الأوروبية الأخرى، وبعد قيام الدول فوق كل شئ خاصة وأنه كان يعتقد أن مصلحة الشعب مرتبطة بازدهار الدولة وتطورها.

وعلى كل حال فقد انتشرت آراء "ميكافيللى" فى بعض دول أوروبا بعد وفاته فى عام ١٥٢٧ حيث حاول بعض ملوك أوروبا تطبيقها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وحاولوا على فترات متباعدة فى تاريخ بلادهم أن تكون الميكافيلية نبراسا أحكم بلادهم سرجا. أن أصبح اسم ميكافيللى علما على كل سياسى متشدد لا تقف الأخلاق أمامه عندما يقترح باقتراح أفضح الأثام من أجل تحقيق غايته ونتيجة لذلك حرقت كنيسة روما كتاباته ميكافيللى ووصفت ما كتبه باللعنة.

ومع كل ذلك فينبغى أن نذكر أن أفكار ميكافيللى يمكن أن تصلح لعصر بعينه. ولمجموعة معينة من الظروف، ولا يمكن أن تكون نبراسا للحكام على مر العصور، بمعنى أنه يمكن اعتبار كتاب الأمير أداة لازمة للاتجاهات السياسية التى استعان بها الايطاليون وغيرهم فى القرنين السادس عشر والسابع عشر.

(١) مخطوطة هذه الترجمة كانت موقوفة على مكتبة مسجد سيدنا الحسين ثم نقلت منها إلى دار الكتب المصرية حيث حفظت تحت رقم ٤٣٥ تاريخ.

(٢) ترجم هذا الكتاب إلى التركية أيضا لعدم اتقان محمد على اللغة العربية.

## ثانياً: مائتي اليجبييرو Dante Alighieire [١٢٦٥-١٣٢١هـ]

أما عن الشاعر السياسى دانتي والذي يعد من القمم العالية فى مجال الأدب العالمى فقد كان خير شاهد على نهاية عصر وميلاد عصر جديد خصوصاً وأنه عاش فى مفترق الطرق بين عصرين فتأثر بتقاليد العصور الوسطى وساهم فى الوقت نفسه بدور مهم فى إقامة العصر الحديث.<sup>(١)</sup> ونتيجة ذلك عرفت دول العالم قدره، فترجمت مؤلفاته إلى لغاتها كما وجد العديد من الكتاب فى مؤلفاته مادة غنية للدراسة وقد ولد دانتي فى مدينة فلورنسا عام ٩٦٢هـ/١٢٦٥م من أسرة نبيلة فقدت ثروتها وسلطانها وقت ولادته وأصبح حالها متواضعاً للغاية، يضاف إلى ذلك أن دانتي فقد والديه وهو لم يكتمل بعد دور الشباب.

وكان دانتي منذ صغره مولعاً بسماع القصص ووجد لذة كبيرة فى قراءتها وقد درس اللاتينية القديمة وألم بآثار اليونان والشرق القديم وتراث العصور الوسطى فى جامعته بادوا وبولونيا، كما درس الفلك والرياضيات والفلسفة وعلوم الدين وإلى جانب ذلك قام بدراسة الشعر، وأحب الأدب حباً كبيراً.

**ومن يستعرض حياة الشاعر دانتي يجد أنها تقسم إلى ثلاث مراحل:-**

• **المرحلة الأولى:** وخلالها أقبل على الشعر خصوصاً الغزلى منه، وفيها وصف حبه لمحبيبته "بياتريشي" التى رآها فى التاسعة من عمرها وتعلق بها ولكنها تزوجت غيره وماتت فى شرخ الشباب وقد ظهر ذلك فى كتابه "الحياة الجديدة".

• **المرحلة الثانية:** وقد انفردت بتحمسه للعلوم السياسية والفلسفية ورغبته فى إنقاذ إيطاليا من ويلاتا ونكباتها.

• **المرحلة الثالثة:** ويبرز فيها رغبته فى الإصلاح الدينى والسياسى. كما تبرز قدراته ونضوجه وينتمى إلى هذه المرحلة كتاباه الملكية والكوميديا التى سميت فيما بعد بالآلهية.

(١) يعد المؤرخ المصرى الدكتور/ حسن عثمان من أبرز الأساتذة المصريين الذين تعرضوا لدراسة دانتي وترجموا العديد من مؤلفاته.

تأليف من أهل العصر

obeikan.com





وقد قسم دانتي الجحيم إلى درجات، ووضع في كل درجة مجموعات من مرتكبي الخطايا والعقاب الذي يستحقونه، فالأثمون من وجهة نظره هم أولئك الذين اهتموا بالمادة والحياة الدنيا، وبإشباع غرائزهم وشهواتهم وسلطوا العاطفة على العقل.

وعن المطهر فقد صورته "دانتي" على شكل جبل مرتفع، ووضع في طبقاته المرتفعة أنواع المخطئين وعقاب كل منهم موضحا أن عقابهم مؤقت ولفترة محدودة ينقلون بعدها إلى الجنة نظرا لأنهم تابوا عن خطاياهم في أثناء حياتهم.

أما الفردوس فقد وضع فيه دانتي الأتقياء والصالحين الذين اتبعوا قواعد الفضيلة في حياتهم، وجعل هذا الفردوس على شكل طبقات ترتفع تدريجيا حتى تصل إلى الذات الإلهية النهائية.

وتصور دانتي أنه رأى حبيبته بياتريشي في الفردوس وارتقى معها في طبقات الواحدة بعد الأخرى. ويتضح لمن يدرس الكوميديا الإلهية أن صاحبها استمد موضوعاتها من عناصر وثقافات متنوعة من القديم والحديث ومن المشرق والمغرب والجنوب والشمال، والأسطورة والتاريخ، والسياسة والعلم والدين واللاهوت والفلسفة والطبيعة والمجتمع والفن، بالإضافة إلى أنه استمدّها من ذاته وتجاربها التي كانت ميدانا للصراع الكائن داخل بين روح العصور الوسطى وروح عصر النهضة والتحرر الفكري كما يتضح محاولات مؤلفها معرفة أسرار ما بعد الموت. ومع أنها تتميز بالطابع الخيالي فإن أهميتها ترجع لعمق ما فيها من أفكار استهوت عقول الكثيرين لدرجة أن العديد من الأدباء يفردون لها مكانا مرموقا في الأدب العالمي، وخاصة وأن صاحبها أمتاز بتعمقه في إبراز المعاني الدنيوية والاجتماعية والسياسية وشتى أنواع المعارف بأسلوب رشيق، كما تبرز أهميتها في أن صاحبها أول من أثبتت صلاحية اللغة الإيطالية في التعبير عن كل المعاني الإنسانية وما تتطلبه حاجيات الإنسان والمجتمع، ويبدو أن دانتي أراد بكتابة الكوميديا أن يعوض نفسه عما ناله من حياة العسك ونكران الجميل، وأن يقيم عالما يسوده الحق والعدل والصفاء والحرية والسلام.

وعلى كل حال فلا يستطيع أحد أن ينكر ولا دانتي نفسه أنه استفاد أثناء كتابته للكوميديا الإلهية من العلوم الإسلامية التي أعجبت بها أوروبا في ذلك الوقت وسعى إليها زعماء الفكر فيها.

فقدى مقارنة الكوميديا الإلهية بما كتبه محيي الدين بن عربي<sup>(١)</sup> وأستاذه ابن ميسرة تظهر مشابهاً بارزة. وفي هذه المشابهات من الدقة والتفصيل ما يجعل أن التشابه بينهما لم يكن أمراً عرضياً أو توارد خواطر بل كان من تأثره مباشرة بهذه الكتابات.

يضاف إلى ذلك أن دانتى اعتمد على رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ونقل عنها بعض الأفكار وأن كان قد عالجهما بذكاء ويؤكد ذلك أن هناك روحاً مشتركة تتخلل القصتين من ناحية المعنى الأخلاقى المنبثق عن التصوف، والرحلة السماوية وما ترمز إليه من تجديد النفس بالإيمان وممارسه الفضائل الدينية والتأمل في جوهر خالق ملكوت السماوات والأرض. هذا إلى جانب أن الترتيب العام للجنة والمطهر والحجيم عند دانتى يشابه تماماً ما هو معروف في الثقافات الإسلامية عن الجنة والنار.

يضاف إلى ذلك أن تمجيد "بياتريشى" وهو الغاية الصريحة من الكوميديا له سوابق فيما صدر عن متصوفى الإسلام. من تعابير انجذابية، فعروس الصوفى الروحية هي الملاك الحارس لحبيبها، ومن مكانها الأرفع ترعاه وتقوده إلى طريق الفضيلة والكمال، وبعد موت الحبيب يجدها بجمالها المشرق تنتظر لقياءه في الجنة.

وهذه الصورة عن المرأة نجدها أيضاً في الجزيرة العربية وخاصة عند بنى عذرة في شمال الحجاز، ومن هنا نشأت عبارة "الحب العذرى" كما نجدها في كتاب "طوق الحمامة" لابن حزم.

ويؤكد اعتماد دانتى على المصادر الإسلامية أن عقله كان مفتوحاً على آراء عصره، وأن عصره كان مشبعاً بالعلم والفن الإسلاميين، فضلاً عن ذلك فإنه من المحتمل أن يكون قد تعرف على هذه المصادر عن طريق أستاذه "برونيتو لاتيني" الذى عاش في طليطلة كسفير لفلورنسا في بلاط الملك "الفونسو الحكيم" المتعلق بالحضارة الإسلامية.

والجدير بالذكر أن المستشرق الأسباني أسين ملاثيوس قد أكد ذلك في خطاب القاء في الأكاديمية الأسبانية في ٢٦ من يناير ١٩١٩ فأعلن صراحة أن دانتى فى الكوميديا الإلهية قد تأثر بالاسلام تأثراً عميقاً واسع المدى يتغلغل حتى فى تفاصيل تصويره للحجيم والجنة.<sup>(٢)</sup>

(١) صاحب كتاب الفتوحات المكية وأمير المتصوفة الإسلاميين فى الأندلس.

(٢) د./ عبد الرحمن بدوى: دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى، القاهرة، الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية

هذا عن أيطاليا، ودورها في عصر النهضة الأوروبية أما عن ألمانيا فقد تميزت النهضة هناك بالدعوة إلى الإصلاح الديني عن طريق دراسة الكتاب المقدس كما كتب باليونانية، ومحاربة المغاسد التي لحقت بالمسيحية، ولقد تبلور ذلك الاتجاه فيما بعد إلى حركة الإصلاح الديني The Reformation التي تزعمها "مارتن لوثر"، فاحتج على صكوك الغفران وتعرض لنظام الكنيسة وطالب بإصلاحه، وقد اكتسحت هذه الحركة معظم الطبقات في ألمانيا، وانتهت بحروب دينية صاحبها تدمير الكثير من الفنون الألمانية ولاسيما فن البناء، وأن ساهمت من ناحية أخرى في بروز فن الموسيقى الذي أخذ يتطور مع الزمن حتى أصبحت لألمانيا صاحبة الريادة فيه.

وبالنسبة لفرنسا فقد ظهرت بوادر النهضة بها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، وكانت بدايتها في الجامعات الفرنسية خصوصا جامعة باريس، وكانت أبرز ملامح عصر النهضة في فرنسا هي عناية الأدباء بالإبداع القصصي والتحليل النفسي، وقد تجلى ذلك في كتابة القصص والمذكرات والتحليل النفسي والخلقى وقد برز من هؤلاء رابليه ومارجريت نافار وبرانتوم ومولوك.

وبالنسبة لإنجلترا فقد اتجهت النهضة فيها إلى جعل الأدب القديمة في متناول أيدي المثقفين ولم تسهم في النهضة بإضافة شئ جديد إلى تراث الإنسانية إلا في القرن السابع عشر ممثلا في أشعار شكسبير Shakespeare وملتون Milton<sup>(١)</sup> إلى جانب ذلك فقد كان للمسرح الانجليزي دوره في النهضة حيث قدم العديد من الروائع الأدبية المليئة بالمفاجآت والمغامرات وتحليل النفس البشرية وطباعها.

أما بالنسبة لهولندا فإن الدراسات الإنسانية بها كانت تهدف أساسا إلى ترتيب ونقد المؤلفات التي جمعها الانسانيون الاوائل، كما تميزت بالعمق والاصالة.

ومما سبق يتضح أن أبرز نتائج عصر النهضة في أوروبا هي:-

١-اضعاف سيطرة الكنيسة وتصدع الاقطاع من ناحية، واختفاء النظام الامبراطوري كنظام سياسى من أوروبا من ناحية أخرى.

٢-إبرز حرية البحث العلمى وانتهاء سيطرة الكنيسة، ورجال الدين عليها.

(١) طالب الشاعر ملتون بحرية العقل أمام السلطان، واتفق معظم حياته في هذا الجهاد محتملا مقاومة الخصوم ومقاومة السلطان جاهرا في ذلك بالأقوال التي تصل بالحرية إلى أبعد مدى.

- ٣- بروز الشعور القومي، وولاء المواطنين للملكية بدلا من الامبراطورية وظهور اللغات الجديدة، وانتهاء دور اللغة اللاتينية كلفة وحيدة لمعرفة العلوم والآداب الأوروبية.
- ٤- ظهور الطباعة مما ساعد على انتشار المؤلفات ونشرها وطبع الكتب القديمة وإيجاد وحدة الفكر والثقافة بين شعوب غرب أوروبا.
- ٥- اكتشاف العديد من المخترعات التي كشفت الكثير من الأسرار العلمية، وساعدت على تقدم الإنسان.
- ٦- بروز دور الجامعات والمدارس وتوقف السيطرة الكنسية عليها، وقيامها ببعث التراث القديم، وإحياء الحركة العلمية والأدبية بوجه عام، وإقبال عدد كبير من الدارسين على هذه الجامعات.
- ٧- ظهور حركة الكشف الجغرافية وارتداد البحار، ونجاح الرحالة الأوروبيين في كشف طرق جديدة حيث استطاع "فاسكو دي جاما" اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح كما استطاع كولمبس اكتشاف الدنيا الجديدة.
- ٨- للتقريب عن الآثار القديمة ودراستها والكشف عن العديد من الآثار الرومانية القديمة وبعثها من مرقدها.
- ٩- نمو شخصية الفرد وإبراز دوره وما يصدر عنه من أفكار وأعمال وهدم الحواجز التي تمنع النفس البشرية في التعبير عن نفسها.
- ١٠- ظهور طبقة جديدة من أبناء الشعب تجمعت بين أيديها الكثير من الثروات، واقتضاء نظام الطوائف عن مسرح الحياة الاقتصادية وإحلال التنافس الرأسمالي محله.
- ١١- خروج الأوروبيين على القواعد الخلقية والتعاليم المسيحية وتحللهم من قيودها.
- ١٢- الاهتمام بدراسة العلوم المتصلة بالظواهر الطبيعية مثل الجغرافيا وعلم الفلك وذلك في محاولة للتعرف على التضاريس والمناخ والتيارات البحرية، وغيرها، والتي كان من نتائجها تمكن العالم الإيطالي "جاليليو" في إثبات أن الأرض ليست مركز الكون بل الشمس هي محوره الذي تدور حوله الكواكب بما فيها الأرض.

ناقضه أصل المص

obeikan.com





بين هذه الدول فى الاستيلاء على المستعمرات مما أدى إلى اندلاع الحروب بين الدول الأوربية نفسها من أجل السيطرة على بقاع جديدة، وكانت الدول السباقة فى هذا المجال البرتغال وإسبانيا ثم هولندا وإنجلترا وفرنسا.

#### ٥- تقدم العلوم الجغرافية والفلكية:

نتيجة لتقدم علم الجغرافيا وعلم الفلك، وتطوير البوصلة والتعمق فى أدراك حركات الكواكب والنجوم واختلاف الأجواء تشجع الملاحون فى اجتياز البحار والمحيطات، والتوسع فى بناء السفن.

يضاف إلى ذلك عدة عوامل أخرى منها رغبة بعض الأوربيين فى الكسب المادى السريع عن طريق الكشوف الجغرافية، وحب البعض الآخر لروح المغامرة والكشف والرغبة فى السطر والتسلط واغتصاب حقوق الآخرين.

وعلى كل حال فقد توجت عملية الكشوف الجغرافية جهودها باكتشاف الأمريكتين فى عام ١٤٩٢م ثم اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨م.

#### ثانياً: فضل البحارة المسلمين على البعثات الكشفية الأوروبية:

عرف العرب ركوب البحار منذ الأزمنة القديمة، وبعد ظهور الاسلام ركبوه للجهاد والتجارة والبحث عن المعادن النفيسة.

وعندما اتسعت أرجاء الدولة الإسلامية، ووصلت حدودها إلى أوروبا غرباً وإلى بلاد الصين شرقاً كثرت رحلات المسلمين العلمية ووصل نشاطهم الملاحى إلى أرجاء المحيط الهندى، وأرخبيل الملايو والصين وبحر الروم وبحر القلزم، وساهموا فى تطوير علم الجغرافيا وتصحيح الكثير من آراء اليونان القدامى حول تصورهم بأن هناك مناطق بمثابة ماوى الشياطين والوحوش ويحذرون من اقتحامها لوجود نار تمنع اجتيازها وتحطم أى سفينة تقترب منها.

ووضع المسلمون خرائط بحرية للاسترشاد بها منذ القرن العاشر الميلادى. كما اخترعوا البوصلة والاسطرلاب هذا فى الوقت الذى كانت فيه معلومات الأوربيين الجغرافية ضئيلة وممزوجة بالخيال وإلى جانب ذلك كانت أوروبا تؤمن بأن الأرض مسطحة، وتحرق



كنائسها. كل ما يخالف ذلك من علم ومعرفة في حين اتخذ العرب من تجاربهم الشخصية أساسا جديدا للجغرافية الملاحية.

ومن أشهر المسلمين الذين جابوا العالم المعروف آنذاك "المسعودى البغدادى" (ت ٣٤٦هـ) صاحب كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" والذي ترك لنا خريطة امتازت بتحديد كل من البحر المتوسط والبحر الأسود وبحر أورال وأنهار النيل، والسند، والكاتج والأندلس (١) (ت ٥٦٢هـ) والذي قام بعدة رحلات ما بين آسيا والساحل الغربى لانتجلترا، وقضى فى صقلية حوالى خمسة عشر عاما قام فى أثناءها برسم الخرائط (٢) والبحث والدرس، كما عمل معلما لبعض الأوربيين.

وقد استعان البرتغاليون بخبرات العرب البحرية واستخدام الآلات الملاحية التى كانوا يستعملونها مثل البوصلة والاسطرلاب بعد أن تعرفوا عليها عن طريق يهود الاندلس الذين نقلوا أسرارها إليهم، وإلى جانب ذلك فقد كانت معرفة البحارة العرب بالطرق البحرية الموصلة إلى الهند هى التى أرشدت البرتغاليين إلى معرفة هذه الطرق، وأبرز مثال على ذلك هو أن الملاح العربى الخليجى "أحمد بن ماجد" هو الذى أرشد فاسكودى جاما إلى الطريق الموصلى إلى الهند.

### ثالثا: أحوال العالم الإسلامى خلال فترة الكشوف الجغرافية:

عانى العالم الإسلامى خلال هذه الفترة من ويلات التمزق والانقسام، وافتقر إلى الوحدة التى تحقق له القوة وتمكنه من مواجهة أعداء الإسلام، وعاش فى ثبات عميق وعزلة عن العالم الأوروبى وكان من نتائج ذلك هزيمة البحرية الإسلامية فى موقعة "ديو البحرية" عام ١٥٠٩م.

(١) ولد فى تشبيلية وتلقى علومه فى قرطبه، وتعد أعماله أعظم عمل عربى فى العصور الوسطى إذ يمثل نقطة الاحتكاك بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية.

(٢) رسم الأندلسى خريطة للعالم فى النصف الأول من القرن الثانى عشر للتفاصيل أنظر: يسرى الجوهري: الفكر الجغرافى والكشوف الجغرافية، الاسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٧٩، ص ١٢٣-١٢٧.

ولقد انقسم العالم الاسلامى خلال هذه الفترة إلى ثلاث قوى متصارعة تحاول كل منها القضاء على الأخرى فهناك الدولة المملوكية فى مصر والشام والحجاز وعاصمتها القاهرة، ويحكمها السلطان "قائصوه الغورى"، وهناك الدولة الصفوية فى بلاد فارس وأعلى العراق وعاصمتها تبريز، ويحكمها الشاه "اسماعيل الصفوى"، وهناك الدولة العثمانية فى آسيا الصغرى وبعض مناطق شرق أوروبا وعاصمتها استانبول ويحكمها السلطان "سليم الأول". واستمر الوضع الاسلامى على ذلك المنوال حتى استطاع السلطان العثمانى "سليم الأول" هزيمة كل من الصفويين والمماليك وتوحيد العالم الاسلامى تحت السيادة العثمانية التى استطاعت الوقوف فى وجه أعداء الاسلام فترة ليست بالقصيرة وضرب المخططات البرتغالية الهادفة إلى الالتفاف حول الجزيرة العربية والاستيلاء على الأماكن الاسلامية المقدسة، واغلاق البحر الأحمر فى وجه السفن غير الاسلامية.

هذا بالإضافة إلى توغل الدولة العثمانية فى قلب أوروبا ونجاحها فى ضم أقاليم أوربية شاسعة وانتزاعها لبعض جزر قراصنة الصليبيين فى البحر المتوسط.

## رابعاً: حركة الكشوف الجغرافية:

### ١- الكشوف البرتغالية:

- تعد البرتغال أول دول أوروبا البحرية التى بدأت حركة الكشوف الجغرافية، ومهدت للهجمات الاستعمارية المتتابة التى تولت على بلاد الشرق.
- وقد يرجع أحرار البرتغال لقصب السبق فى هذا المجال إلى عدة عوامل نذكر منها:-
- ١- موقعها الجغرافى على المحيط الأطلسى.
  - ٢- رغبتها فى استمرار الحروب الصليبية ضد المسلمين.
  - ٣- استفادتها من الخبرات البحرية لدى أهالى جنوه والبنديقية وقيامها بادخال بعض التعديلات على البوصلة باضافة مؤشر يبين اتجاه الرياح مما ساعد على تقدم الملاحة البحرية.
  - ٤- اطلاقها على مجهودات وخبرات علماء المسلمين البحرية وانتفاعها باختراع البوصلة البحرية والتعمق فى ادراك حركات الكواكب.
  - ٥- بنائها للسفن السريعة القادرة على عبور المحيطات والبحار وعلى السير أثناء الرياح.

وترتبط حركة الكشوف البرتغالية بالأمير "هنري الملاح Henry The Navigator" [١٣٩٤-١٤٦٠م] والذي كان يحتضن فكرة كشف الساحل الأفريقي لمواجهة لشبه جزيرة ليبيريا، والرغبة في الوصول إلى جزر الهند الشرقية للحصول على توابل الشرق الغنية.

وقد اهتم الأمير "هنري" منذ صباه بالدراسات الجغرافية والفلكية، فكان شغوفاً بدراسة الخرائط الجغرافية والاجرام السماوية والطرق البحرية، وحركات الرياح كما عنى بالعمل على تطور بناء السفن، هذا إلى جانب أنه يعد المحرك الأول لحركة الكشوف البرتغالية لمدة تزيد على الأربعين عاماً.

وقد اشترك الأمير "هنري" في مغامرات حربية ضد بلاد المغرب العربي احتل فيها مدينة "سبته" في عام ١٤١٥م والتي كانت تعد سوقاً كبيراً للمغاربة وحاول الانطلاق منها إلى مناطق أخرى بغرض نشر الديانة المسيحية فيها ولكنه منى بفشل ذريع حينما حاول الاستيلاء على طنجة في عام ١٤٣٧م كما قام بتأسيس معهد أبحاث جغرافي على الطرف الجنوبي من شواطئ البرتغال في عام ١٤١٨م وبنى قلعة ومرصداً وقصراً لحفظ الخرائط.

كما استقدم إليه صفوة من الفلكيين والجغرافيين وقدم إليهم مجموعات ضخمة من الخرائط والمراجع الفلكية للاستفادة منهم في رحلاته البحرية، يضاف إلى ذلك قيامه بالعديد من المحاولات لمعد أوامر الصداقة مع "القديس يوحنا" حاكم الحبشة المسيحي للاستعانة به في إنشاء إمبراطورية برتغالية في أفريقيا، وتطويق الجناح الإسلامي هناك. ولذلك فإن حركة الكشوف البرتغالية على الساحل الأفريقي كان يدفع إليها العامل الديني ضد المسلمين.

وقد نجح هنري في استكشاف بعض الجزر في المحيط الأطلسي كما نجح في ارتداد الساحل الغربي لأفريقيا عام ١٤١٨ - وقد عرف هذا الطريق البحري بالطريق البرتغالي - وأقام نقاطاً حربية حصينة عليه، واتخذ منها مراكز حربية وتجارية تمكنه من الوشوب إلى العديد من المناطق الأخرى، كما تمكن من اكتشاف جزر ماديرا Madeira في عام ١٤٢٠ وجزر أزور Azores في عام ١٤٣١.

وبفضل هذه الجهود مهد هنري الطريق أمام الخطوات الجادة لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والوصول إلى قرب خط الاستواء وإن كان الأجل لم يمهل حتى يرى ثمرات جهوده فمات في عام ١٤٦٠م.

وعلى كل حال فإنه نتيجة للتنافس الاستعماري بين البرتغال وإسبانيا، وإقيام بعض الاضطرابات الداخلية تعطلت جهود البرتغاليين للكشفية لفترة استمرت بين عامي ١٤٧٥ - ١٤٧٩م ثم خطلت للكشوف البرتغالية خطوة جريئة حققت بها نصرا مهما عندما أمر الملك "يوحنا الثاني" بإرسال بعثة كشفية بقيادة "بارتلميو دياز" Diaz عام ١٤٨٧. فعبّر الساحل الأفريقي، ودلر حول القارة السوداء بقصد الوصول إلى الهند عن طريق البحر مباشرة ونجح في ارتياد الساحل نحو الجنوب حتى وصل إلى الخليج. سماء خليج الزوابع نظرا لشدة التيارات البحرية التي وجدها هناك، ولم يستطع "دياز" الاستمرار في رحلته نظرا لتمررد بعض بحارته عليه، فاضطر الرجوع إلى برشلونه مارا بمنطقة الكاب مباشرة بطريق جديد إلى الهند، وعندما أبلغ ملك البرتغال بأن الطريق إلى الهند أصبح قريب المنال بعد اكتشاف هذا الخليج تغير الاسم الذي أطلقه "دياز" عليه من خليج الزوابع إلى رأس الرجاء الصالح.

وفي حين كان البرتغاليون يتابعون نشاطهم الكشفى دخلت أسبانيا حلبة هذه الكشوف وبدأت تسعى من جانبها في الوصول إلى الهند عن طريق الاتجاه إلى الغرب، مما أدى إلى توتر الموقف بينهما وتوقف حركة الكشوف البرتغالية لمدة تزيد عن عشر سنوات وخشية من مغبة قيام حرب بين الدولتين من أجل السيطرة على المناطق المكتشفة توسط البابا "أسكندر السادس" في الأمر، ونتج عن هذه الوساطة عقد معاهدة "تورديسيلاس" Tordesillas في عام ١٤٩٤م تم بمقتضاها تحديد خط وهمي للتقسيم يفصل بين نطاقات سيطرة كل من الدولتين بحيث تنصب الكشوف البرتغالية شرقي المحيط الأطلسي على بعد ٣٧٠ ميلا غربى جزائر الرأس الأخضر "Cape Verde" في حين تتجه الكشوف الأسبانية نحو غربى المحيط الأطلسي، وتكون البرازيل من نصيب البرتغال وحدها<sup>(١)</sup>

ونتيجة لذلك استمرت البرتغال في اتمام كشوفها فأرسلت "فاسكودى جاما" Vasco de Gama لاتمام ما بدأه بارتلميو دياز في اجتياز طريق رأس الرجاء الصالح والوصول إلى شرقى أفريقيا والهند، وقد تم له ذلك، ونظرا لأهمية هذا الكشف فسنعرض له ولصاحبه ودوره في اتمام الدوران حول جنوبى أفريقيا الوصول إلى ساحلها الغربى.

(١) عقدت بعد ذلك معاهدة بين الدولتين في عام ١٥٢٩ كانت في مصلحة البرتغال في المحيط الهادى فأتفق على أن تكون الملكا للبرتغال والفلبين لأسبانيا.  
انظر: أرنولد توينبى: تاريخ البشرية، ج ٢ - ترجمة نقولا زيادة، بيروت، الأهلية للنشر، ١٩٨٨، ص ٢١٧.

ولد فاسكو دى جاما عام ١٤٦٠م وانتظم فى مطلع حياته بسلك الجندية، ثم أرسله "صانويل الثانى" ملك البرتغال فى رحلة إلى الهند عن طريق رأس الزوابع فى عام ٩٠٣هـ/١٤٩٧م وللأهمية التى يعلقها التاج البرتغالى على هذه الرحلة قام الملك "صانويل" بنفسه بتوديعها. وقد أصطحب "دى جاما" فى هذه الرحلة أربع سفن تضم ما يقرب من مائة وخمسين بحارا، كما حمل معه العديد من الخرائط الملاحية والكتب.

وقد سار "دى جاما" من لشبونة محاذيا للساحل الغربى الأفريقى حتى رأس الرجاء الصالح، فى محاولة منه لتحديد الأطار الخارجى لقارة أفريقيا على خريطة كانت لديه ثم واصل رحلته حتى وصل إلى موزمبيق.

وفى العاشر من مارس ١٤٩٨م أبحر "دى جاما" إلى "مومبسا" ووصل إليها بعد جهود مضنية حيث كانت العواصف العنيفة تحطم معظم سفنه، ولما لم يجد ترحيبا من أهالى هذه المنطقة أبحر إلى "ماليندى" (كينيا الحالية) وفى "ماليندى" قابل "دى جاما" الملاح العربى الخليجى المولد "شهاب الدين أحمد بن ماجد"، واندش من مقدرته على معرفة الأمور الملاحية، وطرقها وأسراها كما ازداد اندهاشه عندما رأى المعدات البحرية المتطورة التى يستخدمها ابن ماجد على سفينته والتى منها اسطرلاب عربى من المعادن والعديد من الخرائط وبعض الآلات التى سجل بها أرساده، ونتيجة لذلك طلب "دى جاما" من ابن ماجد أن يرشده إلى الطريق الموصلى للهند ووافقه "ابن ماجد" على ذلك، وقاد معه سفينة القيادة البرتغالية حتى أوصله إلى ثغر قاليقوت فى ١٨ مايو ١٤٩٨ وكان هذا الثغر مركز تجارى هندى كبير يتعامل معه الكثير من التجار العرب ونتيجة لذلك رأى "دى جاما" المكان الذى يتمتع بها الرحالة العرب والمسلمون فى هذا الميناء، مما دفعه إلى أن يغير اتجاه سيره فصار شمالا حتى وصل إلى "جوا" شمالى "قاليقوت" وعلى الساحل الغربى لشبه جزيرة الهند، وهناك حمل سفنه بمنتجات هذه البلاد وعاد إلى البرتغال يحمل إلى مليكها بشرى نجاح رحلته الكشفية.

#### ولقد نتج عن هذه المرحلة عدة نتائج مهمة نذكر منها:

- ١- أنها كانت بداية لأطماع البرتغاليين فى تجارة الهند وفتحا للعلاقات التجارية السياسية مع الزامورين حاكم قاليقوت مما تسبب فى احتكاكهم بالمسلمين ومناقشتهم للتجار العرب ومحاولتهم طردهم من هذه البلاد.

- ٢- أنها كانت فاتحة الاستعمار البرتغالي في الشرق والسيطرة على بعض جزره ومراكزه وحصونه التي يمكن عن طريقها السيطرة على حركة الملاحة مثل مضيق هرمز.
- ٣- أنها كانت بداية نقطة تحول التجارة الشرقية من البلاد العربية إلى طريق رأس الرجاء الصالح - خصوصا بعد موقعة ديو البحرية ١٥٠٩م - مما أدى إلى أحداث كساد اقتصادي للدولة المملوكية.

وعلى كل حال فقد قام دي جاما برحلته الثانية عام ١٥٠٢ بهدف اغلاق المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، والقضاء على النفوذ التجارى العربى على السواحل الهندية الغربية والقيام بمعدت معاهدات تجارية لدولة البرتغال مع الأمراء الهنود وبعد وصوله إلى سواحل شرق أفريقيا قام بضرب مدينة كلوة بالقنابل، وأجبر سلطانها على الاعتراف بخضوعه لملك البرتغال ودفع جزية سنوية له وقام بضرب السفن البحرية الموجودة عند مدخل البحر الأحمر، وبدأ أعمال القرصنة ضد السفن الاسلامية أمام ساحل الملبار، كما قام بضرب قاليقوت بمنفعة أسطوله يضاف إلى ذلك أنه أغرق سفينة اسلامية في خليج عمان كانت تستقل حجاج من الهند إلى مكة المكرمة، وعلى ظهرها مائة حاج حيث أعدمهم جميعا.

وبعد هذه الأعمال الاجرامية عاد "ديجاما" إلى بلاده في عام ١٥٠٣ م بعد أن ترك أسطولا برتغاليا في المياه الهندية.

وعلى كل حال فقد نتج عن الكشوف البرتغالية عدة نتائج مهمة نذكر منها:-

- ١- تمكن البرتغاليين من الوصول إلى الهند عن طريق بحرى جديد لا يمر بالأراضى الاسلامية ولا يخضع لنفوذها.
- ٢- سيطرة البرتغاليين على الساحل الأفريقى الغربى.
- ٣- قيام العديد من المغامرين بالمزيد من الرحلات الاستكشافية.
- ٤- انتشار تجارة العبيد المجلوبين من أفريقيا بواسطة السفن البرتغالية إلى أوروبا.
- ٥- القضاء على الحركة التجارية الاسلامية التي كانت تمر عبر عباب المحيط الهندي، وتشاهد دائما في موانئه وانتقال مركز التجارة العالمية من البحر المتوسط إلى المحيط الاطلسي مما أضاع الثراء الذي كان يتميز به المماليك والبنائقة.

٦- انخفاض أسعار المنتجات الشرقية التي كانت تصل إلى أوروبا على يد التجار الإيطاليين، مما أدى إلى أحداث كساد تجارى للمدن الإيطالية المشتغلة بالتجارة.

٧- حصول البرتغاليين على العديد من كنوز الشرق و ثرواته. ونتيجة لعدم قدرة التجار العرب والأمراء الهنود على مقاومة النفوذ البرتغالي الزاحف طلبوا النجدة من المماليك حكام مصر والشام في ذلك الوقت، فأعد السلطان المملوكي قانسوه الفوري أسطولاً لوقف زحف البرتغاليين في أعالي البحار الشرقية، ولكنه لم يتمكن من ذلك، حيث ضرب أسطولوه في موقعه ديو البحرية ١٥٠٩ م وواصل البرتغاليون سيطرتهم وقرصنتهم على البحار الشرقية فقام "الفونسو البوكيرك" بالاستيلاء على "هرمز" في الخليج العربي، وعلى "سوقطرة" عند مدخل البحر الأحمر، وعلى "جوا Goa" كما حاول البرتغاليون اقتحام عدن واختراق البحر الأحمر والوصول إلى الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل نتيجة لتصدي أمراء المماليك لهم.

وبعد وقوع منطقة المشرق العربي تحت السيطرة العثمانية منذ عام ١٥١٦م وقّع عبء الكفاح ضد البرتغاليين على عاتق العثمانيين الذين وأن لم ينجحوا في انتزاع السيادة البحرية من البرتغاليين ، فأنهم نجحوا في أحكام سيطرتهم على البحر الأحمر نهائياً، وجعلوه بحراً إسلامياً خالصاً.

ولم يكتف البرتغاليون بما حققوه من اكتشافات في آسيا وأفريقيا، بل ساعدتهم الظروف في الوصول إلى سواحل البرازيل عندما دفعت الرياح الملاح البرتغالي "كبرال" إلى الغرب فنزل إلى سواحل البرازيل ومن هنا بدأ البرتغاليون في احتلال هذه البلاد ونشر المذهب الكاثوليكي بين سكانها.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو هل نجح الشعب البرتغالي الصغير العدد في بسط سلطانه على الممتلكات الكثيرة التي استولى عليها نتيجة لحركة الكشف الجغرافية؟ الواقع أن الاستعمار البرتغالي لبلاد الشرق لم يكن قائماً على أساليب وقواعد استعمارية تحمل في طياتها الاستيطان والاستقرار بل كان همه وقبل كل شيء هو احتكار التجارة والحصول على أرباحها دون الاهتمام بالتنظيم السياسي أو الحكومي في البلدان التي استولى عليها مما أدى إلى انهيار صرح هذه الامبراطورية أمام التنافس الاستعماري الأوربي

خصوصا بعد أن فقدت البرتغال نفسها استقلالها، ووقعت تحت الحكم الأسباني حيث آل عرشها بحكم الوراثة إلى فليپ الثاني ملك أسبانيا، فخرجت البرتغال من بلاد الشرق وهي مثخنة بالجراح، وانتقلت السيادة التجارية إلى يد الهولنديين والانجليز.

## ٢- الكشوف الإسبانية:

لم يتوقف أمر حركة الكشوف الجغرافية على البرتغاليين بل نافستهم أسبانيا في هذه اللعبة ثم تبعتها دول أوربية أخرى مثل هولندا وانجلترا وفرنسا. وقد اتجهت الكشوف الإسبانية ناحية الغرب تاركة البرتغاليين جهة الشرق - طبقا لوساطة البابا اسكندر السادس - فأرسلت في أغسطس عام ١٤٩٢ وبتشجيع ومباركة فرديناند وإيزابيلا بعثة كشفية تحت رئاسة الملاح الجنوى الأصل كريستوف كولمبس **Columbus** الذى عرض فكرته عليهما ووعدهما بالمجد والذهب.

والسؤال المطروح هو لماذا نافست أسبانيا البرتغال في حركة الكشوف؟ وهل كان قصد كولمبس اكتشاف العالم الجديد أو الوصول إلى الهند؟ الواقع أن منافسة أسبانيا للبرتغال كانت برغبة الحصول على نصيب لها من الذهب والفضة عن طريق التجارة للشرقية التي سبقتها إليها جارتها البرتغال، ومحاولة الاتصال بنول الشرق عن طريق الأبحار غربا عبر المحيط الأطلسي حتى تتمكن من وقف احتكار البنادق للتجارة الشرقية، هذا بالإضافة إلى الأسباب الدينية المتمثلة في الرغبة بتحويل سكان البلاد المكتشفة إلى المسيحية، ورفع رايه الصليب عليها. أما عن القصد من اكتشاف عالم جديد فقد جاء وليدا للصدف.

حقيقة لقد كان الأوروبيون يقرأون في ذلك الوقت كتابات الرحالة "ماركو بولو"، ويستمعون إلى القصص المثيرة عن البلاد الغنية بالذهب والجواهر ويؤكدون وجود أراض، وجزر غريبة وعجيبة في المحيط الأطلسي، ولكن لم يكن في حسابهم فكرة اكتشاف عالم جديد وخاصة وأن الغرض من رحلات كولمبس كان اكتشاف جزر الهند الشرقية أو جزر التوابل وعلى كل حال فقد أبحر كولمبس في المحيط الأطلسي غربا في عام ١٤٩٢م وبرفقة ما يقرب من مائة بحار بينهم طبيب وجراح ومترجم حتى وصل إلى أرض يابسة فاعتقد أنه



وصل إلى جزر من ساحل الهند مركز اقتاج التوابل لذلك سمي سكانها بالهنود، وفي الحقيقة أنه اكتشف جزر الانتيل الصغرى وبعض جزر الباهاما.

وقد أطلق كولمبس على هذه المنطقة اسم "سان سلفادور" ثم توجه بعد ذلك إلى شاطئ كوبا الشمالي، وجزيرة هايتي وساما "سباتيولا" أي أسبانيا الصغيرة وعلى الرغم من هذه الرحلة لم يكتشفها العواصف، فقد كان بحارته قلقين من مصيرها.

وبعد حوالي ثمانية شهور من قيام هذه الرحلة عاد كولمبس إلى أسبانيا حيث استقبل استقبالًا حافلًا حيث انعمت عليه الملكة بلقب أميرال كما وعدته بأن تعينه حاكمًا على الأراضي التي اكتشفها من قبل الملك مما شجعه على القيام بثلاث رحلات أخرى اكتشف فيها جزءًا من شاطئ أمريكا الوسطى والجنوبية والبحر الكاريبي، ومع ذلك لم يصحح كولمبس فكرته عن الأراضي الجديدة التي اكتشفها بأنها ليست جزءًا من آسيا. وفي هذه المناطق عمل كولمبس على نشر المسيحية في هذه البلاد، وقرب بعض أهالي هذه البلاد إليه بمنحهم بعض الخرز والأجراس الصغيرة التي كان قد أحضرها معه وقد أطلق الأسبان على أهالي هذه المناطق اسم الهنود لاعتقادهم الخاطئ أنهم وصلوا إلى بعض سواحل الهند. وعلى كل حال فبيدوا أن النجاح الذي حققه كولمبس قد زاد من كثرة حاقديه الذين أوغروا صدر البلاط الأسباني عليه بحجة أنه أضاع أموال أسبانيا في رحلات لم تجن منها الدولة على ما كان يؤمله الأسبان من توابل الشرق مما أدى إلى إعادته إلى أسبانيا مقيدًا بالحديد وإيداعه السجن الذي ظل فيه معتقدًا أنه لم يكتشف قارة جديدة وإنما نزل إلى ساحل الهند، وهذا هو السبب الذي جعل اكتشاف أمريكا لم ينسب إليه نسل إلى الرحالة الفلورنسي "أمريجو فيزبوتشي Amerigo Vespucci" الذي نجح بعد ذلك في الوصول إلى الشاطئ الشرقي لأمريكا الجنوبية موفدًا من ملك البرتغال.

والسؤال المطروح هو ما مدى صحة ما يتردد حول أن العرب وصلوا إلى أمريكا قبل رحلة كولمبس؟

الواقع أن العالم الصيني الدكتور ( هو لزلزي ) أستاذ علم النبات بجامعة بنسلفانيا الأمريكية كان قد أكد ذلك في بحثه الذي إلقاء في الاجتماع الحادي والسبعين بعد المائة لجمعية المستشرقين بمدينة فلادلفيا واستند فيه إلى وثائق محفوظة في الصين وإلى فصول

من النبات والحيوان لم تكن من محاصيل الأرض الأمريكية، وذكر من أخبار تلك الوثائق أن اكتشاف العرب لأمريكا تم في القرن الثاني عشر الميلادي في رحلة استغرقت مائة يوم. ومع ذلك فإن المعلومات حول اكتشاف العرب لأمريكا لا تزال محدودة المجال وأن كان يتردد بعضها بين الحين والآخر.

وعلى كل حال فقد كان لرحلات كولمبس نتائج مهمة نذكر منها:-

- ١- أنه فتح أمام الأوربيين الأفاق للهجرة والاستيطان في العالم الجديد.
- ٢- أنه فتح آفاقا جديدة لجمع الثروات المعدنية والمواد الخام التي غيرت مجرى الاقتصاد الأوربي.
- ٣- أنه أدى إلى تشكيل مجموعة جديدة من الأمم في نصف الكرة الغربي تختلف تماما عن الشعوب الأصلية التي سكنت تلك المناطق.
- ٤- أن هذا الاكتشاف كان أحد الأحداث الفاصلة في التاريخ العالمي.
- ٥- أنه وطد حكم الأسبان الكاثوليك في أمريكا الوسطى والجنوبية ووضع لهم موطن أقدم للانطلاق لغزو المكسيك وبيرو وغيرها.
- ٦- أنه أدى إلى نشر المسيحية في الأراضي المكتشفة التي كان لا يدين أصحابها بديانة سماوية.

ولقد توالى الرحلات الاستكشافية بعد كولمبس ففي عام ١٤٩٧ وصل "جون كابوت" John Cabot الرحالة البندقي إلى جزيرة كاب بريتون Cape Breton بجوار شاطئ أمريكا الشمالية وبعد وفاة الملك "فرديناند" تولى الحكم من بعده حفيده "شارل الأول" الذي بلغت للكشوف الأسبانية في عهده قمة نجاحها، فبعد أن تخلى الملاح البرتغالي "ماجلان" عن جنسيته البرتغالية - بعد أن رفض الملك عما نويل ملك البرتغال أن يعطيه أسطولاً للبحار عن طريق الغرب - عرض على الملك "شارل الخامس" فكرة الإبحار عبر المحيط الأطلسي لاكتشاف جزر التوابل وإعلان ملكيتها لأسبانيا في نظير امداده بمجموعة من السفن والرجال، وبعد أن وافق ملك أسبانيا على طلبه لا عن عقيدة بنجاح الفكرة ولكن لأن حماسه الشاب وعميق إيمانه بفكرته أخذ بلب الامبراطور ومن هنا أبحر "ماجلان" جنوباً في المحيط الأطلسي

فى صباح ٢٠ من سبتمبر ١٥١٩م فى رحلة إلى الفلق مجهولة، تصحبه خمس سفن عليها ٢٦٥ بحارا وبعد حوالى ثلاثة أشهر استطاع الوصول إلى أمريكا الجنوبية والابحار إلى "ريو دى جانيرو" فى البرازيل، وهناك خرج الأهالى من أكوخهم وأخذوا يرحبون بالأغرب ويتبادلون معهم ما يملكونه<sup>(١)</sup> ثم دار حول شواطئ أمريكا الجنوبية ودخل إلى محيط كانت المياه وللزوابع فيه هائلة فاطلق عليه Pacific أى المسالم أو الهادئ الذى يعد ماجلان أول من قام باجتيازه.

وواصل ماجلان سيره حتى وصل إلى للشواطئ التى أطلق عليها اسم الفلبينين تكريما لأسم الأمير فليب الذى تولى عرش إسبانيا فيما بعد، والتى بقيت فى حوزة إسبانيا لفترة طويلة.

وعلى كل حال فإن ماجلان لم يعد إلى إسبانيا حاملا أخبار اكتشافاته حيث قتل فى أحد حروبه داخل جزر الفلبين بنبال مسمومة اختترقت فخذه وأزهقت روحه.

#### • النتائج التى حققتها رحلة ماجلان:

- ١- لن ينسى التاريخ أن "ماجلان" ذلك الشاب الأعرج قد برهن للعالم مدى قدرة الإنسان على تحمل المشاق.
- ٢- أثبتت هذه الرحلة أن السير فى اتجاه واحد سواء كان ذلك من الشرق لم من الغرب لا يبد أن يؤدى إلى الرجوع للمكان الذى بدأ منه الإنسان رحلته مما أثبت بالدليل القاطع الحقيقة الجغرافية التى تؤكد كروية الأرض.
- ٣- أن هذه الرحلة فتحت طريق الشرق الأقصى أمام الأوروبيين، كما ربطت العالم الجديد بالشرق الأقصى.
- ٤- أثبتت هذه الرحلة أن هناك قارتين عظيمتى الاتساع هما أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية يقعان بين أوروبا وآسيا.

(١) أشار بيجانغا أحد البحار المساحين لماجلان فى مذكراته إلى أن "الأهالى البسطاء كانوا يعطوننا لقاء كل جرس معدنى صغير مملوءة بالهطاطس" كما كتب عن النساء اللاتى كان كل ما يقطس لجسادهن السمر شعور طوال كاليل اليهم.



٥- أنها كشفت الطريق المؤدى إلى المحيط الهادى وصححت الفكرة عن نسبة مساحة اليابس بالنسبة للماء.

٦- أنها منحت الإنسانية عطاء وافرا من الثروة والمعرفة.  
وهكذا أصبح ماجلان الذى مات قبل أن يرى ثمار عمله ويرى رأسه مكللة باكاييل الغار مثلا واضحا للشجاعة الخارقة والعزم الراسخ.  
وعلى أى حال فقد كان من الملبى أن تستغل هذه المناطق المستكشفة لغرض التجارة والاستيطان، ولنشر المسيحية والحضارة الأوروبية أيضا.

### ثالثا: الكشوف الانجليزية:

لم يستمر النشاط الاستعماري وحركة الكشوف مقتصرًا على البرتغال وأسبانيا فقد أثار النجاح الذى أحرزته كل منهما رغبة الدول الأوروبية الأخرى فى النزول إلى هذه الحلية فأدلى الإنجليز بدلوهم فى هذا المجال، ومع أن الدور الذى قاموا به فى حركة الكشوف يعد ضئيلا بالنسبة لما حققه الأسبان والبرتغاليين من كشوف فإنهم ضمنوا لانفسهم نصيبا من الغنيمة أكثر مما كان متوقعا.

فى عهد الملك "هنرى السابع" قامت بعثة بقيادة الأبطالى "جون كابوت" بعبور الأطلسى والوصول إلى شاطئ أمريكا الشمالية عند "نيوفوندلاند" فى ٢٤ من يونيو ١٤٩٧ ورفع الأعلام الانجليزية هناك، كما أبحر "كابوت" مرة ثانية بخمس سفن فى عام ١٤٩٨ ووصل إلى "فلوريدا" مما أدى بعد ذلك إلى استعمار الإنجليز لأمريكا الشمالية ، ومن ثم أصبح ملك إنجلترا صاحب السيادة والنفوذ على هذه المناطق. وفى عام ١٦٠٠ وافقت الماكنة "اليزابيث" على تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية.

### رابعا: الكشوف الفرنسية:

اتجهت فرنسا بكشوفها الجغرافية نحو أمريكا الشمالية حيث قام الملاح "جاك كارتييه" بأربع رحلات لكتشف خلالها إقليم كندا، ومصب نهر سانت لورانس فى عام ١٥٢٥، وتوغل فى العديد من المناطق الأمريكية.

ونتيجة لذلك تكونت شركات فرنسية عند منطقة 'سانت لورانس' لاستغلال المنطقة اقتصاديا.

وفي عام ١٦٨٢ اكتشف الفرنسيون نهر الميسيسيبي وانتشرت قواتهم فى مساحات واسعة من أمريكا الشمالية ولكن ذلك لم يستمر طويلا حيث حاربهم الانجليز وانتزعوا كندا من أيديهم.

### خامسا: الكشوف الهولندية:

كان للهولنديين دور بارز فى حركة الكشوف الجغرافية حيث قام الملاح \* هنرى هندسون\* بعبور شمال الأطلسي والوصول إلى خليج نيويورك ونهر الهندسون الذى سمي باسمه، كما اكتشف القبطان الهولندى \* وليم شويتن\* طريق رأس هورن فى عام ١٦١٦ والذى أصبح منذ ذلك الوقت طريقا ملاحيا مهما ثم واصل المستكشفون الهولنديون رحلاتهم حتى اقتربوا من استراليا ونيوزيلندة بين عامي ١٦٢٢ - ١٦٢٤ ولكن نظرا لعدم متابعتهم لهذه الكشوف نسبت فيما بعد إلى الانجليزى \* جيمس كوك\* الذى قام بثلاث رحلات اكتشف فيها استراليا ونيوزيلندة وبعض جزر المحيط الهادى.

وعلى كل حال فقد اتخذ الهولنديون من رحلة هندسون أساسا بنوا عليه حقوقهم فى امتلاك واستعمار المنطقة الساحلية فى أمريكا الشمالية الواقعة بين خطى عرض ٤٠، ٤٥ من الشمال، كما أقام الهولنديون مركزا تجاريا مهما فى جزيرة 'مانهاتن'، ومحطة تجارية لجمع الفراء وفى عام ١٦٢٢م تأسست شركة الهند الغربية الهولندية ومنحت حقوقا تجارية واستعمارية واسعة فى مناطق من العالم الجديد وعلى طول ساحل أفريقيا الغربى جنوبى مدار السرطان فسيطرت نفوذها على أغلب نهر هندسون وبنت قلعة لمستردام كما اشترت هولندا جزيرة 'مانهاتن' بأربعة وعشرين دولارا.

وفى عام ١٦٢٢ أصبحت نيوزلندة ( هولندة الجديدة) مستعمرة حقيقية للهولنديين. كما استولى الهولنديون على ساحل غينيا وفى عام ١٦٣٤ استولوا على 'كوركو' بجزر الهند الغربية ونزلوا 'جيانا' بأمريكا الجنوبية واحتلوا جزءا من البرازيل لمدة ثلاثين سنة حتى عام ١٦٥٤م.

كما احتلوا جزيرة هيلانة، واقاموا مستعمرة عند رأس الرجاء الصالح ١٦٥٢م واستولوا على جزيرة موريشيس وجزيرة سيلان وساحل الهند الجنوبي الشرقي وكذلك على محطات لتجارة الحرير في فارس، ومحطة لتجارة البن في الملاييم.

وعلى الرغم من كل ذلك فقد انصب اهتمامهم إلى أرخبيل الملايو من أجل تلك أسواق محطات بحرية في فرموزا، كما وصلوا إلى نومبورا في عام ١٥٩٥ وحكموا الجزر الاندونيسية وسيطروا على التجارة مع الصين واليابان ولم يحل منتصف القرن السابع عشر الميلادي إلا وكان الهولنديون أكبر قوة أوروبية في البحار الشرقية.

### سادساً: النتائج التي ترتبت على الكشوف الجغرافية:

#### ١- النتائج الاقتصادية:

استطاعت حركة الكشوف الجغرافية تغيير خطوط ومعالم مراكز التجارة العالمية حيث قلت أهمية البحر المتوسط بالنسبة لهذه التجارة وازدادت أهمية المحيط الأطلسي ويعرف بعض المؤرخين ذلك بالثورة التجارية التي كان من أهم نتائجها:

- أ- تدفق المعادن الثمينة مثل الذهب والفضة إلى أوروبا.
- ب- زيادة عدد أفراد الطبقة الوسطى من التجار ورجال الصناعة وارتفاع مستوى معيشتهم.
- ج- ظهور العديد من الصناعات والمخاضيل الزراعية الجديدة مثل البطاطس والكافور والتبغ والكينا والذرة.
- د- ظهور مشكلة تصريف المصنوعات وزيادة الطلب على المواد الخام اللازمة للصناعة مما ساعد على حركة الاستعمار.
- هـ- إنشاء البورصات المالية العالمية وازدياد نشاط المصارف.
- و- بناء الأساطيل الضخمة حتى تؤمن الدول الأوروبية سبل اتصالها بمنتجاتها فيما وراء البحار.

#### ٢- النتائج السياسية:

- أ- اشتغال عملية التنافس الاستعماري بين الدول الأوروبية رغبة في التوسع فيما وراء البحار على حساب الشعوب المستضعفة.

- ب- قيام الحروب بين الدول الأوروبية وبعضها.  
ج- السيطرة السياسية على دول الشرق.

### ٣- النتائج الاجتماعية:

- ١- لقرار مبدأ التفرقة العنصرية والمناداة بسيطرة الرجل الأبيض على غيره.
- ٢- وضع حياة بعض الشعوب وإرادتها تحت السيطرة الأوروبية.
- ٣- انتشار أسواق الرقيق في أوروبا.
- ٤- انتشار الحركات التبشيرية بغرض نشر العقيدة الكاثوليكية بين سكان المستعمرات.
- ٥- إبراز دور الطبقة الوسطى.

### ٤- النتائج العلمية والثقافية:

- ١- اتساع عملية المعرفة، وتغيير الكثير من المعلومات الجغرافية المتوارثة عن شكل الكرة الأرضية وحجمها وعدد القارات والمحيطات.
- ٢- تطور علم الفلك، وظهور معلومات جديدة عن الأجرام السماوية وغيرها.
- ٣- اتساع مجال البحث العلمي.
- ظهور معلومات جديدة في علوم النبات والحيوان والبحار.



خرستوف كوب